دراسة تاريخية للتعايش السلمي في ولاية جنوب كردفان(جبال النوبة)مع التركيز على حالة الحوازمة عبد العال والرواوقة ونوبة الوسط

محمد أحمد بابو نواي

كلية السلامة للعلوم والتكنولوجيا و باحث فى دراسات السلام والتنمية

المستخلص :

تناولت هذه الدراسة أهم الموضوعات التي أصبحت تشغل بال المجتمعات الإنسانية بسبب الحروب والنزاعات ومحاولات الهيمنة التي جعلت عملية التعايش السلمي بين الأفراد والمجتمعات أمراً بالغ الصعوبة إن لم يكن مستحيلاً في بعض البلدان ، وذلك باعتبار أن فترة الدراسة قد شهدت تطورات عديدة في الشأن السوداني ومشهد جنوب كردفان على وجه الخصوص وخاصة جانب التعايش السلمي والتداخل بين سكان الولاية باعتباره من أهم المرتكزات التي تساعد في تحقيق الأمن و الرفاه الاجتماعي لأهل المنطقة نسبة لأنها تعد من أكثر ولايات السودان تأثراً بالنزاع المسلح الذي استمر لأكثر من ثلاثين عاماً ومازال . ومن خلال ذلك فقد تحصل الباحث على المعلومات من خلال المراجع والدراسات السابقة والتقارير و الملاحظة والمشاهدة التي قام بها الباحث أثناء زياراته المتكررة لمنطقة الدراسة كما قام الباحث بإجراء عدد من المقابلات مع رجالات الإدارة الأهلية .

وقد توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج أهمها أن النزاع المسلح في جنوب كردفان لم يؤثر على علاقات التعايش السلمي بين سكان الولاية والذي استمر لأكثر من قرن من الزمان وكان ذلك له الأثر الإيجابي على استقرار السكان في المنطقة ولم يهجروها رغم صعوبات الحرب التي مازالت دائرة في المنطقة .

الكلمات المفتاحية : *التسامح ، التداخل ، التعايش ، التزاوج ، التجانس .*

ABSTRACT :

This study addressed the most important subject which becomes the headache of the humanity communicates because of war and conflicts and domination attempts that coexistence between individuals and communities is so difficult, but may be impossible in some countries, considering the period of the study is witnessed many evolutional in Sudanese issues, particularly, South Kordofan prospective, especially the side of coexistence and the population intersection of the state considering its most bases that helped in improving security and social welfare to the people of the region regarding its effectives of armed conflicts more than other states of Sudan, which continued for more than thirty years and still going on. Through this, the researcher collect data from references, previous studies, reports, observations and the witnessed by the researcher during his repeated visits to the area of study, also the researcher proceeds a number of interviews with civil administrations leaders.

The study achieved a number of findings and most of these findings is the armed conflict in South Kordofan did not effects with relationship of the coexistence between the state's people which continued more than a century, which lead to a positive effect on the stability of the population in the area, who did not leave their state dispite of the war difficulties which still going on the area.

Keywords: *forgiveness, Interference, coexistence, mating, homogeneity.*

المقدمة :

موضوع التعايش السلمي بين المجتمعات السكانية أصبح من الموضوعات المهمة التي يكثر تناولها في وسائل الإعلام المحلية والعالمية وعقدت العديد من المؤتمرات والندوات العلمية كما أصبح كمصطلح من المصطلحات الحديثة التي تعبر عن حالة السلم التي تعيش فيها الدول ذات الأنظمة الاجتماعية و العقائد السياسية المتباينة ، وذلك دون نشوب حروب أو نزاعات بينها وذلك من خلال تطوير الأعراف والتحالفات والقوانين التي تجعل التعايش ممكناً وذلك وفق طبيعة ونوع المجتمع في الدولة المعنية مما يتيح فرصة للجانبين لقبول الوضع الراهن في العلاقات لإزالة حدة التوتر .

المشكلة :

1. استحوذت قضايا الحرب والسلام في ولايتي جنوب كردفان ، والنيل الأزرق على اهتمام القوى السياسية الولائية والقومية ، وظلت مطروحة في الساحة بإلحاح شديد ، مضى الآن أكثر من5 أعوام منذ أن تجدد التمرد في هاتين الولايتين دون أن يحدث اختراق حقيقي في مواقف أي من طرفي النزاع ، تفاقمت هذه الأزمة بعد توقيع تحالف كاودا وتكوين الجبهة الثورية في 2011/11/11م وهي جبهة ضمت بالإضافة للحركة الشعبية قطاع الشمال ثلاث من حركات دارفور المتمردة وهو التحالف الذي وجد دعم لوجستي ومحضن أمن في دولة الجنوب مما أدى إلى توتر بين الدولتين أوصلهما إلى حافة الحرب الشاملة .
2. مثل القرار 2046 منعطف جديد في هذه القضية حيث وضع كل من دولتي السودان وجنوب السودان في أجواء التفاوض من جديد بعد أن توقف بسبب أحداث هجليج ، أعلنت الحكومة موافقتها على مسار آخر لمعالجة قضيتي جنوب كردفان والنيل الأزرق مما يعني فتح التفاوض مع أبناء الولايتين في الحركة الشعبية وهو مسار رحبت به كل الأطراف ،ورغم التأييد الواسع لمبدأ التفاوض لكن هناك رفض للحل الثنائي من جانب الحركات المسلحة والاحزاب السياسية المعارضة على نسق نيفاشا ومطالبة بتوسيع المشاورات لتشمل جميع أهل المصلحة .
3. طرحت عدد من الفعاليات مثل مبادرة جامعة الخرطوم و مجلس شورى الحوازمة ومنبر جنوب كردفان واتحاد عام المسيرية والهيئة الشعبية لتنمية المنطقة الشرقية وهيئات أخرى كثيرة ورؤى مختلفة لمعالجة القضية ، كما يجب ان لا يغفل الحل المجموعات السكانية ذات المصلحة في حدوث السلام والاستقرار .

أسئلة الدراسة :

حاولت الدراسة الإجابة على الأسئلة التالية :

1. هل أحدث النزاع المسلح في جنوب كردفان أثراً سالباً على التعايش السلمي بين السكان ؟
2. هل التحالفات القبلية بين السكان التي كانت تمثل صورة من صور التعايش مازالت مستمرة ؟
3. إلى أي مدى ساهمت التحالفات القبلية في الحفاظ على العلاقات الاجتماعية بين السكان دون نزاعات مسلحة منظمة ؟ .

أهداف الدراسة :

تهدف الدراسة إلى الآتي :

1. تقويم عملية التعايش السلمي بين سكان المنطقة بالدراسة العلمية المجردة : .
2. المساهمة في تبصير السكان بأهمية التعايش السلمي بينهم .

3. حث مجمع الولاية على الحفاظ على هذه التحالفات باعتبارها موروث ثقافي وتشجيعهم للسعي لبناء تحالفات جديدة تؤصل لعملية استمرار التعايش السلمي بين أفراد المجتمع الجنوب كردفاني.
6. **أهمية الدراسة** : تأتي أهمية الدراسة في تناولها لقضية التعايش السلمي التي أصبحت تؤرق كل مجتمع الولاية وكل المهتمين بشأن الأمن والسلام الاجتماعي ، باعتبارهما هدفين نهائيين لكل مجتمع ولكل دولة .

فروض الدراسة:

تقوم الدراسة على الفروض التالية :

أ. التعايش السلمي بين سكان ولاية جنوب كردفان ضروري من أجل تحقيق الأمن الاجتماعي والاستقرار.

ب. يرتبط التعايش السلمي بين السكان ارتباط وثيق بعملية قبول الأخر ولمكانية العيش في محبة وسلام .

8. منهجية الدراسة :

اتبعت الدراسة المنهج الوصفي وذلك من خلال وصف الأحداث وسردها مع إبراز نماذج ، كما أتبع الباحث المنهج التاريخي وذلك لتتبع تطور ونشوء العلاقات الاجتماعية والتحالفات القبلية التي كانت سائدة بين السكان . فقد جمع الباحث المعلومات الأولية من خلال الملاحظات والمقابلات التي أجراها الباحث أما المعلومات الثانوية فقد تم جمعها من المراجع والكتب والتقارير الرسمية للدولة والدوريات المتخصصة .

9. محاور الدراسة :

تتكون الدراسة من المحاور التالية :

أ. أساسيات الدراسة .

ب. الإطار النظري .

ت. الدراسات التطبيقية .

ث. النتائج والتوصيات .

ج. الخاتمة .

الإطار النظري :-

جنوب كردفان والموقع والمناخ والمساحة :

تشمل منطقة جبال النوبة كل المنطقة التي تُعرف حالياً لدى الدوائر الرسمية في الدولة والسكان المحليين باسم ولاية جنوب كردفان والتي تغطي جغرافياً مساحة تقدر بحوالي 30.000 ميل مربع حيث تقع بن خطي عرض 9-31 درجة غرباً وخطي طول 10-12.5 ميل مربع درجة شمالاً ، وولاية الوحدة من الجنوب ومن الشرق ولاية أعالي في دولة جنوب السودان والنيل الأبيض . وتبعد عن العاصمة الخرطوم حوالي 800 كيلو متر مربع تشمل منطقة جبال النوبة سلاسل جبلية عنقودية تتكون من 99 هرماً من الجبال المتفرعة . وتتفاوت ارتفاعاتها ما بين 500-1000 متر فوق سطح البحر ، وتعتبر قمة جبل مندي بالقرب من منطقة رشاد أعلى قمة جبلية في المنطقة حيث يبلغ ارتفاعها حوالي 4.790 قدم فوق سطح البحر وتصنف المنطقة بأنها واقعة في حزام السافنا الغنية حيث يبلغ معدل هطول الأمطار فيها ما بين 600. 800 ملمتر مما يسمح بالزراعة والمطرية والرعي .

المكون الديمغرافي :

يبلغ سكان ولاية جنوب كردفان ، حوالي 2.500.000،اثنين مليون وخمسمائة ألف حسب آخر إحصاء سكاني في انتخابات عام 2011م هؤلاء السكان ينتشرون في مناطق الولاية المختلفة حيث تسكن الولاية أكثر من 24 مجموعة قبلية متداخلة جغرافياً واجتماعياً مع بعضها البعض ويشكل النوبة نحو 50% من السكان وقبائل الحوازمة والمسيرية وأولاد حميد وكنانة والكواهلة 40% 10% من المجموعات القبلية الأخرى ، تشتمل على الفلاتة ، البرقو ، والداجو والبرنو وبعض تجار المناطق الأخرى في السودان .

المكون الإداري :

تتكون ولاية جنوب كردفان من 16 محلية وعدد كبير من الوحدات الإدارية ويجئ هذا التقسيم بهذا الشكل لمطالب السكان المحليين ,

جنوب كردفان تاريخ الحرب وطريق السلام :

شهدت ولاية جنوب كردفان منذ عام 1984تمرداً تصاعدت وتيرته وتطورت أساليبه فخلف آثاراً سالبة متعددة وجروح غائرة في أعماق إنسان الولاية ، حرمت هذه الحرب معظم أطفال الولاية من فرص التعليم الأساسي ، وأدت إلى تزايد الفقر والعوز نتيجة لفقدان الأسر لمصدر دخلها وعائلها وتسببت في التشرد والنزوح و ساهمت في بروز أخلاق شاذة وسلوك غير مألوف وعطلت حركة التنمية ودمرت البنية التحتية في الولاية وأصبحت قضايا جنوب كردفان مادة خصبة في الإعلام الخارجي ومدخل لتشويه سمعة السودان .

بذلت الحكومة مجهودات عديدة لمعالجة الأزمة وتسويتها ففي عام 1997م وقعت اتفاقية سلام مع فصيل جبال النوبة المتحد بقيادة محمد هارون كافي وفي يناير 2002م وقعت اتفاق وقف إطلاق النار في سويسرا الذي تطور لبروتوكول خاص وُقع ضمن اتفاقية السلام الشامل التي عرفت باتفاق نيفاشا 2005م وهو الاتفاق الذي أنهى الحرب وإن أدى تقرير المصير أحدى مستحقات الاتفاق إلى انفصال الجنوب .

بالنسبة لجنوب كردفان أفضى البروتوكول الخاص بالولاية إلى شراكة في الحكم بين المؤتمر الوطني والحركة الشعبية استمرت حتى قيام الانتخابات وفوز المؤتمر الوطني وهي النتيجة التي رفضتها الحركة الشعبية وتسببت ضمن عوامل أخرى عديدة إلى إعادة المنطقة مجدداً إلى لدائرة الأزمات والتوتر الذي تصاعد حتى وصل إلى مرحلة التمرد من جديد .

اتفاقيات السلام السابقة والمعروفة باتفاقية السلام الشامل انتهت إلى نتائج محزنة ولم تصنع سلاماً مستداماً فتقرير المصير انتهى إلى الانفصال ، وبروتوكول أبيي انتهى إلى تدويل القضية وبروتوكول جنوب كردفان والنيل الأزرق انتهى بتجدد التمرد في الولايتين وهذا يعني عدم جدوى الحل الثنائي بين المؤتمر الوطني والحركة الشعبية ، ولابد أن يكون لمختلف مكونات الولايتين ونخبها دوراً محورياً إذا أردنا تحقيق سلام مستدام .

الدراسة التطبيقية :-

المجموعات القبلية التي تسكن جبال النوبة :

لقد أخبرنا التاريخ بأن المجموعات العربية قد دخلت منطقة جبال النوبة هذا الجزء من كردفان منذ القرن السادس عشر الميلادي (سعيد ، 1982، ستيفن سن 1984م ، حامد ، 2002م) ومن جهة أخرى فإن جماعات النوبة العرقية المتباينة كانت موجودة في هذه المنقطة قبل هذا التاريخ بكثير (نفس المصدر) . لكن هناك حقيقة هامة يجب معرفتها وهي أن النوبة ليسوا قبيلة واحدة كما يعتقد الكثيرين وإنما هم مجموعات قبلية تتباين في كثير

من العادات والتقاليد ، ولكن شأنهم شأن كل المجتمعات المتخلفة اقتصادياً وثقافياً حيث تعتبر القبيلة عندهم هي أحدى ركائز البنية الاجتماعية الأساسية . وتنقسم قبائل النوبة حسب أشهر الدراسات إلى عشرة مجموعات رئيسية تضم كل مجموعة عدة قبائل تتشابه في لهجاتهم وعاداتهم ، وذلك حسب ما ذكره (نادل) . وأيضاً حسب التقسيم الجغرافي الحالي لسكان جبال النوبة من واقع الجولات الميدانية التي سجلته لجبال النوبة وهي كما يلي :

1. مجموعة الكواليب وتضم قبائل الكواليب ، المورو ، هيبان ، أطور ، تيرا ، وليرا .
2. مجموعة تلودي والمساكين تضم : قبائل تلودي ، الليري ، المساكين أجرون ، تجو كلولو .
3. مجموعة تقلي وتضم : قبائل تقلي ، رشاد ، كجكجا ، تقوي ، تسومي والمواريب .
4. مجموعة لفوقة وتضم قبائل لفوفة ، أميرا .
5. مجموعة كادوقلي : وتضم قبائل كادوقلي ، كرنقو ، ميري ، تلوشي ، وكاتشا .
6. مجموعة تينيم وتضم قبائل كيقا ، تينيم ، تيسي .
7. مجموعة كتلا وتضم قبائل كتلا ، جلد وتيما .
8. مجموعة النيمانج وتضم قبائل النبماج والديتي والأفيتي .
9. مجموعة الأجانج وتضم قبائل الجبال الستة ، والغلفان ، الكاركو والى ، فندا ، كاشا ، طبق أبو جنوك ، الدلنج ، الكدر .
10. مجموعة الداجو وتضم قبائل الداجو ، شات ، لقوري .

أما المجموعات العربية التي تسكن جبال النوبة واستقرت فيها تضم مجموعة البقارة (الحوازمة . المسيرية ، أولاد حميد) إضافة إلى الكواهلة ، بني هلبة ، الشوابنة ، البديرية والغديات .

كما أن هناك مجموعات أخرى غير عربية ولا نوبية وهي قبائل قليلة العدد تتمثل في بعض القادمين من غرب السودان وغرب أفريقيا وهي قبائل البرقو ، والفلاتة ، والبرنو ، وقبائل أخرى صغيرة ، وقد عاشت هذه المجموعات في منطقة جبال النوبة لعدد من السنيين رغم حدوث بعض الاحتكاكات بينهم أحياناً إلا أن السمة الغالبة هي التعايش السلمي بينهم .

نماذج التعايش السلمي بين سكان جبال النوبة :

كما أسلفنا لقد أخبرنا التاريخ أن العرب قد دخلوا منطقة جبال النوبة أبان القرن السادس عشر الميلادي وأن المجموعات النوبية موجودة في داخل هذه المنطقة قبل هذا التاريخ بكثير لكن لم تصنف هذه البنيات العرقية المتباينة تحت اسم النوبة إلا خلال المائتي عام الأخيرة حيث طبق هذا المصطلح العرب المهاجرين (خلال القرن الثامن عشر) والحكام البريطانيون (خلال القرن العشرين) (البطحاني 2003م) وعلى العكس من ذلك فإن للقومية والشعور القومي وسط المجموعات العربية (الحوازمة) في المنطقة الوسطى لجبال النوبة يعود للقرن السادس عشر وما قبله (البشير 2002م) . وقد ترتب على هذه الحقائق ضمنياً وجود مستويات مختلفة من التطورات الاجتماعية لكل من المجموعتين كما كان لها أيضاً تأثير وتداعيات على التعايش السلمي بين النوبة والعرب والقبائل الأخرى في المنطقة . غير أن العلاقة بين النوبة وبقية المجموعات القبلية ظلت أبرز ميزاتها التعايش السلمي والامتصاص العرقي والثقافي المتبادل الذي ينساب بهدوء عبر مؤسساتهم وآلياتهم الأهلية والثقافية الفعالة .

وإذا ركزنا دراستنا هنا على حالة عرب الحوازمة ونوبة الوسط على اعتبار أن هذه المنطقة هي من أكثر وأكبر المناطق التي حدث فيها تمازج قبلي بين المجموعتين فإننا لابد أن نركز على التقسيمات القبلية للحوازمة في هذا الجزء من جبال النوبة وكذلك المجموعات النوبية الأخرى ، وعليه من خلال هذا السرد نجد أن مجموعة الحوازمة القبلية تتكون من ثلاثة عشائر رئيسية هي (الرواوقة ، الحلفا ، وعبد العال) وهذه تنقسم بدورها إلى مجموعات أصغر منها (دار بخوته ، دار شنلقو ، دار نعيلة ، ودار جامع ، دار بشي ، وأولاد مؤمن ..الخ) وتحتل كل من هذه العشائر والبطون منطقة جغرافية محددة تعرف باسم الدار أي المكان المعترف به رسمياً من قبل الدولة ، ولكن نجد أن قبائل الحوازمة تتوزع على كل منطقة جبال النوبة كرعاة و مزارعين رعويين (أي يجمعون بين حرفة الزراعة والرعي). وكذلك تنقسم المجموعات القبلية للنوبة إلى أكثر من 80 عشيرة قبلية لكل منها لهجته الخاصة وموطنه المحدد الذي تعترف به الحكومة رسمياً في الإطار المؤسسي للإدارة الأهلية . وفي كل من هذه الديار والمواطن القبلية يلتقي العرب والنوبة مراراً وتكراراً وبصورة مكثفة حيث أنهم يتقاسمون المنطقة ، وفي مثل هذه الحالة يعتمد العشيرتان من النوبة أو العرب الذين يكونوا على اتصال وثيق وشبه دائم إلى اعتماد ميثاق أو تحالف ينظم مصالحهم المتباينة في المنطقة ذاتها حيث نجد أن النوبة مزارعين بينما العرب رعاة أو يجمعون بين الحرفتين . فإذا دخلت عشيرتان أو أكثر من أحد المجموعتين في نزاع فمن الراجح أن تقوم عشيرة أخرى أو أكثر من العشائر المتحالفة من العرب أو النوبة بالوساطة لإجراء الصلح بين القسمين المتصارعين ، وعلى الرغم من أن المجموعين المتحالفتين قد دخلتا في هذا الحلف بوضعهما عشائر أو بطون من النوبة أو العرب لكنهم كثيراً ما يتخذون موقع الممثلين للنوبة بأجمعهم والعرب بأجمعهم أي اختيار ظرفي للانتماء العرقي حسب الأدوار والمهام الجديدة التي تحددها أو تطلبها العشائر القبلية . فإذا ركزنا على ذلك على سبيل المثال لا الحصر نجد أن النوبة في منطقة الدلنج وجزء من كادوقلي ينقسمون إلى الآتي :

1. أم حيطان .
2. الهدرة .
3. كرنقو .
4. لقوري .
5. نيمانج .
6. أجانج . الكواليب ،جزء من الأجانج .
7. قلفان .
8. الكواليب .
9. شات .
10. صبي .
11. تيمين .
12. تلشي .

وفي المقابل نجد أن الحوازمة في منطقة الدلنج وجزء من كادوقلي ينقسمون إلى الآتي :

1. دار بخوتة . ب. دار نعيلة ج. دار جامع ، د دار شنلقو
2. هـ دار بيتي و ، أولاد المؤمن .

وعليه إذا أردت أن تطبق هذا الجدول على الحياة الواقعية حتى نوضح كيف تعمل هذه التحالفات على حفظ السلم والتعايش السلمي بني هذه المجموعات ، نجد مثلاً هنالك حلف قبلي قائم الآن بين دار بخوتة (أ) والنيمانج (5) وحلف آخر بين دار نعيلة (ب) وتيمين (11) . نجد أن المسافة بين قسمي القبيلة العربية أي دار بخوتة ودار عيلة حوالي خمسين ميلاً وكذلك الأمر مع قسمي قبلتين من النوبة النيمانج وتيمين ففي حالة حدوث نزاع بين (أ،هـ) مثلاً فنجد أن أي من الطرفين (ب، 11) مؤهل للقيام بوساطة بينهما . وفي عملية الوساطة يدخل كل قسم من النوبة أ والعرب مثلاً (أ. 5 ، 11/ب) في العملية بوصفه نوبة أو عرب وليس ممثلاً لـ 5 أو 11 أو أ أو ب ومن هنا فإن أي حلف داخلي من القسمين من شأنه أن يسهم في عملية السلام الشامل بين كتلتين النوبة والعرب أو بين القبائل الأخرى في المنطقة ، وكانت هذه الطريقة هي واحدة من آليات صنع السلام بين المجموعتين (نوبة وعرب وغيرهم) والحفاظ عليه قبل أن يتغول عليهم بكثافة الطرفان المتحاربان الرئيسيان (أي الحكومة السودانية ،والجيش الشعبي لتحرير السودان) آنذاك (عفاف تاور ، عبر تنوع العقائد والمعتقدات ، الخرطوم ، 2001م).

ويمكن أن تستخلص من وجود هذه المؤسسات (التحالفات القبلية والآليات ما يلي :

1. ظل النوبة والحوازمة) (عرب البقارة) يعيشون في سلام دائم خلال القرون الثلاثة الأخيرة .
2. على الرغم من أن نزاعات هامشية قد تحدث بين بعض النوبة والعشائر العربية الأخرى فإن التاريخ لم يسجل أي واقعة لنزاع شمل النوبة والعرب ككتلتين عرقيتين رئيسيتين في منطقة جبال النوبة ، ولكن بعد دخول الحركة الشعبية والجيش الشعبي لمنطقة جبال النوبة في عام 1983م قد استمالت إلى جانبها بعض أبناء النوبة وفي الطرف الآخر استمالت الحكومة الأطراف العربية من الحوازمة والمسيرية ، بالتالي أصبحت تحدث بعض الخروقات للمواثيق والعهود الموقعة بين الجانبين وبدأ ينهار هذا البنيان الاجتماعي الذي ظل لمئات السنين .
3. بعد ستة سنوات (1988م 1994) من النزاع العنيف الذي كان يدور في المنطقة بين الحكومة والجيش الشعبي لتحرير السودان قطاع جبال النوبة وقد شارك في هذه الحرب كل من المجموعتين بقدر ولائه للحركة الشعبية أو الحكومة لكن أخيراً في (1995م) نجحت المجموعتان في الوصول لسلام من خلال إعادة إحياء وتفعيل دور مؤسسات التعايش السلمي العادية التقليدية السابقة التي كانت تستخدم للحفاظ على الأمن والسلم الاجتماعي بين هذه المجموعات في المنطقة وذلك عن طريق عقد المؤتمرات .

ومن ناحية أخرى هناك معالم أخرى أثرت في التحول الاجتماعي والاقتصادي لسكان المنطقة من المجموعتين وذلك من خلال إدخال نمط المشاريع الزراعية التنموية الريفية وذلك في إطار التكوين الاقتصادي للمنطقة والذي يجمع بين الرعي والزراعة التقليدية وهذه المشاريع تمثلت في الآتي :

1. الزراعة الآلية التجارية ، في عام 1967م .
2. مشروع تحديث الزراعة التقليدية في عام 1971م .
3. مشروع تنمية صغار المزارعين في عام 1980م .
4. مشروع التنمية الريفية لجبال النوبة في عام 1982م .

وقد اقتضت هذه التحولات التنموية ضمناً تحويل اقتصاد النوبة الزراعي واقتصاد عرب الحوازمة (البقارة) إلى اقتصاد رعوي زراعي نقدي ، وهذه العمليات أدت بدورها إلى تحول اقتصادي آخر كانت له آثار بعيدة

المدى تتمثل في تغيير النظام القديم لتقسيم العمل والتخصص الاقتصادي أي عمل النوبة كزراع والبقارة كرعاة وبناء على هذا اتخذ كثير من النوبة مثلاً قلفان ، ومورو و هدره ، وأم حيطان الرعي كحرفة ونمط حياة . وكان للعمليتين أيضاً أثرهما على عمليات النزاع وصنع السلام بين النوبة عرب البقارة . ومن خلال هذا السرد يمكن استخلاص التداعيات التي نشأت عن هذا التحول :

أ. يمكن القول إن النزاع بين النوبة والعرب في المنطقة يرجع لأسباب اقتصادية وليست عرقية فعادة ما تدخل المجموعتان في نزاع من موقعهما كرعاة ضد مزارعين وليس كعرب ضد النوبة .

ب. أدى التغيير الاقتصادي إلى تحالفات قبلية جديدة مبنية على مصالح اقتصادية وحرفية تتجاوز عادة الحدود العرقية والثقافية النوبية والعربية.

أيضاً من خلال هذا السرد يمكن القول أن العلاقة بين النوبة والعرب في منطقة جبال النوبة هي علاقة اعتماد متبادل للمصالح الاقتصادية بين المجموعتين ويمكن القول أن النوبة تبنوا وتأثروا بالثقافة العربية وتبدو مظاهرها في الآتي :

1. اقتباس النوبة لمناشط فلكلورية عديدة من البقارة المحليين مثل رقصات المردوم والنقارة .
2. تبني النوبة لزي العرب المحليين وأسمائهم .
3. ولاء النوبة للمنظمات السياسية التي يشكل العرب المحليون الغالبية العظمى فيها مثل حزب الأمة .

وبذات القدر فإنه يمكن وصف التأثير الثقافي النوبي على قبائل البقارة بأنه عملية تنوب كصنو لعملية تبقر حيث تتمثل علمية التنوب وسط البقارة في المظاهر الآتية(حامد البشير ، 2002م) :

1. تبني البقارة لكثير من أشكال الفلكلور النوبي مثل المصارعة التي أصبحت من ألعاب الفروسية الرئيسية وسط قبائل الحوازمة .
2. دخول كثير من أبناء الحوازمة لاتحاد عام جبال النوبة في عقد التسعينات .
3. مشاركة الحوازمة جيرانهم النوبة أفراح أعياد الحصاد والسبر وطقوسه المختلفة بقدر يعبر عن المجاملة والاعتراف بخصوصيات الجار الحميم .
4. الزواج المتبادل بين النوبة والعرب المحليين والذي يعرف محلياً باسم النسابة أو المصاهرة (علي عثمان صالح ، مجلة الثقافة ، ع 16 ، ديسمبر 1980م).

على ضوء هذه النماذج يمكننا أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض التحالفات التي كانت سائدة بين هذه المجموعات ويمكن أن نكتفي في هذه الدراسة بحالتين :

الحالة الأولى :

كان أحمد أبو قرينات وهو زعيم قبيلة الفقراء التابعة للرواوقة . حليفاً مقرباً لعشيرة التيسي التابعة للنوبة كادوقلي بزعامة كوكو أو كالي . وفي ذات مرت دخل أحمد أبو قرينات وعشيرته في نزاع مع أولاد تينة وهي عشيرة أخرى تابعة للرواوقة ويتزعمها محمد بية فسارعت العشرية النوبية التي يتزعمها كوكو أبو كالي لمساندة حليفها أحمد أبو قرينات ضد محمد بية زعيم عشيرة أولاد تينه .

الحالة الثانية :

قبل ستة وتسعون عاماً مضت (1920م) عقد النوبة شات بمنطقة أم دورين تحت زعامة رئيسهم دلدوم أبو تكينة اجتماعاً سرياً للقبيلة قرروا فيه شن حرب ضد العرب المحليين أي عشيرتا الديلامية والفقراء التابعتان

للحوازمة وكانت تعيشان وسطهم) بهدف طردهم خارج المنطقة فقال أبو تكينة لأتباعه أن العرب أقلية في المنطقة ويمكننا أن نجليهم جميعاً فسعت قبيلة نوبية أخرى مجاورة وتدعى كاتشا ، والتي كانت حليفة لعشريتي الديلامية والفقراء بهذه المؤامرة فسارعت بإخطار حليفها خاطر دودو أي زعيم قبيلة عرب الفقراء وعن طريق هذه المعلومة كشف الفقراء والنوبة كاتشا مؤامرة النوبة شات ومن ثم تم إحباطها وافشالها ، ومن هنا يتضح أن النوبة كانوا أكثر إخلاصاً للحلف العربي من أبناء جلدتهم .

هكذا كان يسود التعايش السلمي بين المجموعتين طيلة السنين الماضية إلى أن تغير هذا الوضع بعد أن تدخلت الحركة الشعبية ممثلة في الجيش الشعبي لتحرير السودان قطاع جبال النوبة والحكومة وذلك في إطار الحرب بين شمال وجنوب السودان حيث بدأ هذا النظام الاجتماعي في الانهيار .

ومن هنا يمكن القول أن هذه الاثنيات والثقافات تداخلت وتعايشت في سلم ووئام وتسامح منقطع النظير ، حيث تنافست الديانة الإسلامية والمسيحية على المساحات الشاسعة التي سيطرت عليها الوثنية فنجد في بعض الأحيان أن أفراد الأسرة الواحدة بينهم مسلمين ومسيحيين دون أن يؤثر ذلك في علاقاتهم الأسرية كما نجد قبائل مسلمة وأخرى مسيحية دون أن يؤثر ذلك في علاقاتهم الاجتماعية بل أنك لا تستطيع تصنيف الناس على أساس الدين من خلال تعاملاتهم الاجتماعية والإنسانية بحيث يحترم كل منهم ديانة الآخر ويحدثني أحد المسيحيين من طائفة الأقباط وهم يبادلون أخوانهم المسلمين تهاني عيد الأضحى وعيد الفطر وكل المناسبات الإسلامية وكذلك المسلمين يكنون نفس المشاعر والاحترام للمسيحيين وهم يعيشون مع بعض في معظم مناطق جبال النوبة .

فالمنطقة مؤهلة أن يقال عنها بحق أنها صورة مصغرة للسودان بمختلف اتجاهاته وعرقياته وهي بذلك منطقة حساسة يمكن أن تكون مثالاً للوحدة والتعايش السلمي والتسامح الديني وهي محط التقاء الثقافة الأفريقية والعربية وهي جسر للتواصل مع جنوب البلاد وبالتالي لها قابلية في أن تلعب دوراً إيجابياً في صياغة الهوية السودانية ، لكن على الرغم من هذا التمازج والتسامح والوئام بين سكان منطقة جبال النوبة طيلة الأعوام الماضية ، إلا أن التغييرات التي ظهرت حديثاً في بنية النظام الاجتماعي والنظام الأهلي " الإدارة الأهلية " بمنطقة جبال النوبة قد أدت إلى ظهور فجوة إدارية واجتماعية كبيرة في المناطق الريفية لجبال النوبة والتي أدت إلى عدم وجود ضبط اجتماعي وإداري وعدم وجود نظام قوي لتنظيم الانتفاع بالموارد وخلق التعايش السلمي بين الجماعات الاثنية المختلفة وفي الطرف الآخر نجد أن سياسات الدولة الغير متوازنة في جبال النوبة قد تسببت في سلسلة من النزاعات والصراعات بين هذه الجماعات الاثنية هذا بالإضافة إلى مجموعات أخرى اجتماعية واقتصادية مختلفة في المنطقة والتي تتمثل في الفلاحين والمزارعين الرأسماليين والدعاة . بسبب كل هذه التحولات في نظام الإدارة الأهلية عند النوبة وكذلك التحولات الاقتصادية والسياسية في العقدين الأخيرين (1990م . 2010م) وبسبب التغييرات البيئية الهامة التي نشأت عن مغامرات التنمية الزراعية الريفية قامت أشكال وأنماط مختلفة من الصراعات بين الأحزاب والتنظيمات المتعددة في منطقة جبال النوبة والعرب وبين الرأسماليين المستثمرين في المشاريع الزراعية والرعوية الكبيرة وبين مشروعات التنمية المختلفة . هذه المجموعات تضمنت بدورها صراعات محلية أبعد اشتملت على الآتي الصراعات بين الفلاحين النوبة .

أ. الصراعات بين الفلاحين النوبة والعرب .

ب. الصراعات بين الفلاحين والرعاة من النوبة .

ت. الصراعات بين الرعاة النوبة والعرب والرعاة من القبائل الأخرى غير العربية وغير النوبية .

ث. صراعات الفلاحين النوبة والعرب ضد المستأجرين من النوبة والعرب في مجالات المشروعات الجماعية لصغار المزارعين وصراعات كل المذكورين أعلاه ضد التجار المستثمرين في المشروعات الزراعية الكبيرة.

ج. صراعات كل المذكورين أعلاه ضد رعاة الجمال الوافدين من شمال كردفان بسبب الجفاف والتصحر منذ نهاية السبعينيات من القرن الماضي(أدم الزين وآخرين الخرطوم ، 1998م) .

من هذا السرد أصبح جلياً أن انفجار الوضع في منطقة جبال النوبة في شكل نزاع مسلح في عام 1985م واستمر حتى يومنا هذا حتماً نسبة لأن المسرح الاجتماعي الاقتصادي في منطقة جبال النوبة كل خصباً ومساعداً على ذلك ، ولذلك يرى الباحث أنه مهما كانت المبررات والأسباب التاريخية ، إلا أن القوى المباشرة وراء هذا النزاع نبعت من عدم التساوي في القدرة على الوصول إلى الموارد الشحيحة وعدم التكافؤ في التنافس عليها ، وذلك غالباً بسبب التغييرات والتحولات السريعة وسط الاثنيات المختلفة بجبال النوبة وهذه التغييرات كانت سمات مميزة للكيان الاجتماعي للنوبة وهذه التغييرات كانت سمات مميزة للكيان الاجتماعي للنوبة والعرب في بداية الحرب الأهلية في المنطقة عام 1985م لذلك وجدت الحرب تربة خصبة واتخاذ أشكال وتعابير مختلفة إبان الفترة من عام 1985م وحتى 2011م لذلك يرى الباحث أن هذا الفهم هو المناسب الذي يقدر على إيجاد الحلول التي يمكن أن تعيد التعايش السلمي الذي حدث بين المجموعات الاثنية المختلفة في القرون الخمسة الماضية في منطقة جبال النوبة .

وخلاصة القول يرى الباحث أن القبيلة كانت ومازالت تشكل واحدة من أهم المظاهر الاجتماعية في جبال النوبة بل السودان .

وصحيح أن النعرة القبلية قد خفت وقلت حدتها في كثير من مناطق السودان لكنها مازالت تنعكس في الكثير من أوجه التعامل ليس فقط في المناطق النائية مثل منطقة الدراسة ولكن حتى داخل بعض مؤسسات الدولة ، وذلك سلوك الجماهير نحوها وذلك نراه ظاهراً للعيان كما يحدث في تدافع المجموعات القبلية المختلفة التي تحدث في الإدارات الإقليمية والولائية والمحلية على أساس قبلي ، وهي صور تؤكد شيئاً من رواسب الماضي التي تأبى أن تنتهي أو تندثر .

نتائج الدراسة :

1. الاستقطاب الحاد من قبل الحركة الشعبية الذي يستهدف القبائل والأفراد على أساس أثني وكذلك الحكومة .
2. انتقال السكان من الولاية إلى ولايات أخرى داخل السودان وآخرون إلى دول خارج السودان ويعيشون في ظروف قاسية .
3. استخدام السلاح من قبل بعض المجموعات المتفلتة من النظاميين وشبه النظاميين في وجه المواطنين في مناطق الزراعة أو الرعي أو موارد المياه أو في السطو على المنازل ليلاً ، ويدخل هذا التصنيف كل الفئات المتفلتة التي وجدت ضالتها في الانتشار غير المقنن للسلاح في أيدي العديد من السكان .
4. التنافس الحاد بين النخب السياسية في الولاية في داخل التنظيم السياسي الواحد وأحياناً في داخل التنظيمات السياسية المختلفة .

5. تسمية المنطقة جنوب كردفان أو جبال النوبة مازال يسبب إشكالاً للعديد من السياسيين في المنطقة هل هو على أساس أثني أم جغرافي .
6. هنالك بوادر حديث بدأت تظهر على السطح عن السكان الأصليين لجبال النوبة (أصحاب الأرض) أو سكان غير أصليين.
7. الاصطفاف الجهوي والمناطقي الذي بدأ يظهر على السطح بين الفينة والأخرى في شكل مطالب سواء كان لمقاعد في السلطة التنفيذية أو التشريعية أو مستوى حكم وحدة إدارية أو محلية أو ولاية .
8. كل هذه العوامل وغيرها كثيرة إذا لم يتم تجاوزها سوف تسف الاستقرار والتعايش السلمي الذي يسود المنطقة .

لتوصيات :

1. تعتبر القبيلة وحدة اجتماعية تتكامل مع غيرها لبناء المجتمع البشري ، تتجلى فيها معاني الحب والتآلف ، والتعاون ، وتمثل إطاراً يعبر عن قوة المجتمع وتماسكه وتنظيمه ، ويتميز بنظم داخلية وأسس وقيم ومرتكزات تتكامل في هذا البناء الجامع المؤسسي الموحد العاطفي ، لتضطلع بدورها في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، إلا أن ضعف أو غياب العوامل والقيم والمبادئ والترتيبات المتعلقة بمصالح أفرادها أو تلك التي تحكم دورها مع الآخرين في الفضاء الوطني ، سرعان ما يقود إلى التنافس والتسابق في المضمار الحضاري ومن ثم نشوء ظاهرة الاختلاف والتباين وتقاطع المصالح .
2. عليه يظل ضعف الرؤية الإستراتيجية لإدارة التنوع العرقي والثقافي بالبلاد ، يمثل أهم الأبعاد لتخلف دور القبيلة وتنامي سلبيات القبلية ، ولعل ضعف الثقافة الوطنية وضعف السلوك الوطني وضعف الفكر الوطني المساند لتأسيس مفهوم الدولة ، ومن ثم ضعف تنفيذ منظومة القيم والمرتكزات الإستراتيجية التي تؤسس لذلك ، أدى لإرباك وتناقض النشاط الوطني ليفرز أوضاعاً قادت لتخلف دور القبيلة وتنامي سلبيات القبلية وتباين في المشاعر الوطنية وضعف الحس الوطني.
3. التعامل مع القبيلة كوحدة اجتماعية وكيان للتعارف وتنمية الأعراف القيمية والإنسانية ، دون إنكار لوجودها أو انحراف برسالتها ، والنأي عما يسمى تسييس القبيلة من خلال توظيفها السياسي من قبل الطامحين والطامعين ، باعتبار أن ذلك مدخلاً لخلخلة النسيج الاجتماعي ومهدداً بتحويل القبيلة إلى كيان معاد.
4. إبراز الهوية الجامعة والقواسم والجذور المشتركة لسكان السودان كبديل للحديث عن التباين والتنوع ، وإنتاج المعرفة العلمية التي تؤسس لذلك .
5. التوافق حول الإستراتيجية القومية كخطة تعبر عن الدولة .
6. تحقيق مفهوم المواطنة والالتزام بالحقوق الدستورية للمواطن وسن التشريعات ووضع النظم الكفيلة بحماية حقوق المواطن وعلى رأسها العدل .
7. اعتماد المواطنة أساساً للحقوق والواجبات .
8. العدالة في الخدمة المدنية والعسكرية فيما يتصل بالتعيين والتوظيف والترقي والمحاسبة والفصل وشروط الخدمة.
9. تحقيق مفهوم المواطنة وتحقيق الرضا والإجماع الوطني بشأن المصالح والمهددات والتحديات الإستراتيجية ، والمحافظة عليها .

10.تنمية وتعزيز الإحساس بالمصلحة العامة .

11.المحافظة على نظام حكم راشد يرسي العدالة ويحقق المشاركة الشعبية الإيجابية و يمكن من تحقيق الأمن والتنمية الشاملة ، ويقوم على إعلاء مفهوم الدولة وأسس الشورى والديمقراطية والعلمية والتعددية ومبادئ سيادة حكم القانون والشرعية واستقلال القضاء والفصل بين السلطات والتداول السلمي للسلطة والتوازن بين السلطة السياسية والسلطة العلمية والمهنية وبناء خدمة مدنية تقوم على العلم والقانون والمؤسسية والشفافية والمحاسبية .

12.المحافظة على الأمن والاستقرار .

13.المحافظة على ممارسة سياسية وحزبية راشدة تقوم على مرتكزات إستراتيجية (الديمقراطية والعلم والمهنية والشفافية والمحاسبة بعيداً عن العصبيات .

14.تحقيق التوازن التنموي الذي يؤسس لعدالة توزيع الخدمات وفرص العمل بين الولايات والمحليات ، ويحافظ على البيئة .

15.تعزيز الارتباط بين الولايات بشبكة النقل الإقليمي والوطني .

16.تطبيق اللامركزية وفق ضوابط تعزز الوحدة الوطنية .

17. تعزيز التوعية الوطنية باللامركزية كنظام للحكم وتقوية الإحساس القومي .

18.تعزيز السلطة المركزية في المسائل السياسية دون الإخلال بالنظام اللا مركزي .

19.عدم إنشاء مزيد من الولايات بدوافع عرقية وجهوية .

20.عدم اعتماد التصنيف القبلي كأساس للحقوق والواجبات .

خاتمة :

هناك عوامل كثيرة بدأت تؤثر في التركيبة الاجتماعية والقيم الإنسانية لإنسان الولاية وهذه قد تقود إلى مآلات غير مرغوب فيها مستقبلاً وربما تنسف السلام والتعايش والاستقرار الاجتماعي والاثني الذي عاشته الولاية طوال العقود الماضية من عمر الزمان.

المراجع والمصادر :

1-د. الهادي عبد الصمد ، السودان بين الأقليمية (الحكم الفدرالي) 1990 فى 240 .

2-جبال النوبة أثنيات وتراث ، ط2 ، 2003م2 .

3-عفاف تاور كافي ، جبال النوبة عبر تنوع القصائد والمعتقدات ، الخرطوم ، 2001م .

4-أ.د.على عثمان صالح ، الأصول التاريخية للحضارة السودانية ، مجلة الثقافة ، 146 ديسمبر 1980/ دار الوثائق.

5-د.آدم الزين وآخرون ، رؤى حول النزاعات فى السودان ، الخرطوم 1998م .